الاستبداد شرطاً للنهضة!

2008/10/21

من العبارات المشهورة للزعيم الصيني الراحل "دينغ شياو بنغ"، قوله لشعبه متعهداً، في بداية حكمه أواخر السبعينيات: "أنتم تتركون السياسة لي، وأنا أقودكم للرخاء". وهذا معناه أن مسيرة النهضة الصينية المعاصرة، قامت على اشتراط منع "الديمقراطية" بمعناها الليبرالي القائم على الفردية، لكن "دينغ" لم يكن دكتاتوراً بالمعنى المعروف للكلمة، كما كان سلفه "ماو" مثلاً، أو كما كان نظراؤه في الاتحاد السوفييتي، إذ أنه لم يسلك طريق "عبادة الفرد"، بل على العكس، فقد قدّم مصالح الشعب على الأيديولوجيا والأفكار الجاهزة، بما يستدعيه ذلك من إعادة تقييم وتعديل قراراته وخططه باستمرار.

هذا يدل على أن دينغ، رائد النهضة الصينية، كان "مستبداً عادلاً"، وقد مارس الاستبداد أينما رأى أنه ضرورة للحفاظ على نهضة البلاد وتقدمها، بما في ذلك ما فعله في مواجهة المطالبين بالديمقراطية على الطريقة الغربية في ميدان تيان آن مين في العام 1989، كونهم أخلّوا بمعادلة ترك السياسة له، فهو بهذا ربط الاستبداد بما يراه عدلاً، بحيث لا يكون سبيلاً للتسلط، وقد نجح فعلاً في نقل بلاده "النامية"، بحسب ما يُصرّ الصينيون، من التخلف إلى التقدم.

السؤال هنا: هل كان ذلك الاستبداد العادل ضرورة لهذه النهضة؟ أي: ألم يكن ممكناً للصين أن تنجز هذه النهضة الكبيرة لو اتبعت قيادتها أسلوب حكم مختلفا؟

بدائل الاستبداد العادل إما أن تكون استبداداً مطلقاً، أو ديمقراطية فردية. وقد جرّبت الصين الاستبداد المطلق من قبل، وبخاصة بين عامي 1966 و1976، وهي سنوات "الثورة الثقافية"، فكان التراجع حتى في أرقام التنمية، هو النتيجة. أما الديمقراطية الفردية فلم تجرّبها الصين، لكن ما يمكن قوله إنها كانت ستنتج تخبطاً، وستحول دون إعادة توجيه الاقتصاد والسياسة الخارجية باتجاه ثنائية "الإصلاح والانفتاح"، بالطريقة التي تمت على يد دينغ، بخاصة بعد سنوات القمع التي عاشها هؤلاء الذين يُفترض أن يوجهوا السياسة في النظام الديمقراطي، وهو أمر باتت تعرفه الدول ذات الثقافة الاجتماعية غير المدنية، التي حاولت الانتقال مباشرة في آلياتها السياسية من حكم الفرد إلى ممارسات ديمقراطية، بما فيها دول عربية.

الصين التي بنت نهضتها المعاصرة على "اللانموذج"، بمعنى أنها لم تتبع أياً من النماذج المعروفة يساراً ويميناً، بل ابتكرت نموذجها الاقتصادي والسياسي الخاص، تحت اسم "الاشتراكية ذات الخصائص الصينية"، قدمت من خلال "اللانموذج" هذا، نموذجاً فريداً للدول النامية التي تُصنف نفسها ضمنها، مؤداه أن الانتقال من حال التخلف إلى حال النهضة، لا يمكن تحقيقه بسرعة، إلا إذا توافرت قيادة: مخلصة، ومثابرة، وواسعة الأفق، وغير منشغلة بمعارك سياسية هامشية، من النوع الذي لا بد أن يُحدثه النموذج الديمقراطي الغربي حين يُطبّق في مجتمعات لا تعترف بالفردية. وبالطبع فإن هذه الظروف لا يمكن ضمانها إلا في ظل ممارسة الاستبداد العادل، تماماً كما أن الاستبداد العادل لا يمكن أن تمارسه بحق، إلا قيادة مخلصة.

كانت فكرة "المستبد العادل" قد طُرحت مبكراً في المشروع النهضوي العربي، باعتبارها شرطاً للنهضة في "الشرق". يبدو أن تلك الفكرة وجيهة جداً، لهذا كان عدم الأخذ بها واحداً من الأسباب الرئيسية لتعطّل نهضة العرب، إلى جانب غياب "الوحدة" مقابل وجودها بالنسبة للصين. لكن توافر "المستبد العادل" ليس سهلاً، بل يمكن القول إنه محكوم بالصدفة والحظ، وقد كان حظ الصين جيداً لأن دينغ نجا من كل المؤامرات السابقة على حياته، ولأنه عاش طويلاً حتى سن الثانية والتسعين (تولى الحكم في الثالثة والسبعين!)، أما حظ العرب فعلمه عند الله!

samer.khair@alghad.jo

سامر خير أحمد